مقال للأب متى المسكين

# الميلاد والصداقة الإلهية[1]

⊙✠⊙

حقيقة التجسُّد الإلهي توضِّح لنا أن الله أراد أن يُقيم علاقة بينه وبين الإنسان، أراد أن يتصادق مع الإنسان، فتنازل إليه، وأخذ جسده، وشابهه في كل شيء، ما خلا الخطية، وحمل أوجاعه وآلامه.

ومفهوم الصداقة هي اتفاق بين اثنين. وهنا إمَّا أن يكون الاثنان على مستوى واحد، أو أن واحدًا أعلى من الآخر. وفي الحالة الأخيرة لا بد أن يتنازل الأعلى إلى الأدنى لكي تتمَّ الصداقة، فيتخلَّى الأعلى عن علوِّه وميزاته، وبغير ذلك لا يمكن أن تتم الصداقة. وهكذا ارتضى الرب الإله أن يتنازل عن أمجاده ويلبس الصورة الآدمية لكي يتصادق مع الإنسان المسكين الضعيف الخاطئ.

وإن كنا نقول إن التجسُّد الإلهي أظهر محبة الله للإنسان، إلَّا أننا نقول إن المحبة ربما تظهر من عظيمٍ إلى حقير، ولكن يظل العظيم عظيمًا، والحقير حقيرًا. ولكن إن تأملنا كيف أظهر الله صداقة مع الإنسان، نجد في ذلك مُنتهى المحبة المملوءة تواضُعًا وتنازُلًا مع ما فيها من نتائج جليلة حدثت للإنسان نتيجة لهذه الصداقة العجيبة.

إن كنا نقول إن الله تجسَّد من أجل الإنسان حتى يُقدِّسه ويُخلِّصه، فهذه كلها أوصاف للنتائج التي حدثت للإنسان نتيجة للصداقة الإلهيَّة التي أجراها الله مع الإنسان. وعندما تمَّت هذه الصداقة، وتنازل العظيم إلى مستوى الفقير، ارتفع بالتالي الحقير إلى مستوى العظيم وصار بالضرورة مُقدَّسًا وطاهرًا، وارتفع عن الماديات، لأنه صار صديقًا للإله العظيم القدوس، وتلاشت منه الخساسة والضعف والخطية.

ولكن كيف نُعلِّل لماذا نرى الإنسان ـ حتى الآن ـ ما زال نجسًا وشريرًا، وتصوُّرات قلبه شريرة مثلما كان من قديم قبل التجسُّد، حتى أن بعض القديسين عندما فحصوا ذواتهم وجدوا أنفسهم أكبر الخطاة؟!

---

(١) من كلمات الأب متى المسكين التي ألقاها في وادي الريان في الفترة ما بين سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٩م.

للإجابة عن هذا التساؤل، نقول: إن الإنسان يستطيع أن يكون قديسًا وطاهرًا كلما ازداد قُربًا وصداقة مع الله، لأن هذه نتيجة حتمية، بالرغم من ضعفه وشعوره بالخطية. أما إذا ابتعد عن الله وضعفت صداقته، فإنه يزداد شرًّا وظلمة، حتى ولو قمع شهوته وزاد من نُسكه ومارَسَ أعظم التداريب الروحية.

والآن، كيف نُطبِّق ما فعله الله معنا، والصداقة التي أظهرها لنا في حياتنا؟

إذا كنا نؤمن حقًّا بالرب، وبما صنعه من أجلنا، وكيف تصادق معنا، فيجب أن يكون الرب هو قدوتنا ونموذجنا في مسيرة حياتنا. فكما كان هو، هكذا نحن أيضًا. وهكذا يجب أن يكون سلوكنا مع الجميع: العظيم والحقير، الرئيس والمرؤوس، القديس والخاطئ ... لا فرق، الجميع سيَّان.

لقد ضرب لنا الرب يسوع في حياته على الأرض أقوى الأمثلة في علاقاته وصداقاته مع جميع أطياف المجتمع، وخصوصًا الضعفاء والخطاة والمُهمَّشين ... وبهذه الصداقة استطاع أن يرفع هؤلاء المساكين، وأن يردَّهم ويجذبهم ويُحوِّل مسار حياتهم ...

انظر مثلًا ماذا فعل الرب يسوع في عُرس قانا الجليل! سألوه: "أتذهب معنا إلى العُرس"؟ "أتجلس وسط المدعوِّين"؟ "أتأكل وتشرب معهم"؟ يقول لهم: "ليس عندي أي مانع". يا لعِظَم التنازُل العجيب. ذهب يسوع وجلس وسطهم، وشارك الناس حياتهم العادية بلا أدنى ترفُّع أو استعلاء. وكانت النتيجة أن انفتحت قلوبهم لذلك الصديق المتواضع الذي تنازل ليُقاسمهم أفراحهم. هنا حدثت المُشاركة الوجدانية بينهم وبينه، وصار الحب متبادلًا. وكان لسان حالهم: "ماذا تريد يا يسوع أن نعمله لك"؟ ثم انظر ماذا فعل يسوع من جانبه؟ قدَّم لهم خمرًا مُحييًا، أفاقهم من سُكرهم، ثم وجَّههم إلى طريقه الضيِّق الذي يتكرَّس بسفك الدم.

هذا هو سرُّ الكرازة في العالم لأجل خلاص النفوس، أن يتنازل الكارز إلى مستوى السامع، يُحبُّه ويُصادقه، حتى يستطيع هو بالمقابل أن يتجاوب مع مشاعره تمامًا. وهنا ينفتح القلب لتقبُّل الكلمة فتُثمر وتأتي بثمار الخلاص.

الأب متى المسكين